

دلائل الإعجاز

إنَّما تمَّعُّبُ مراعاةُ السَّجْعِ والوزنِ ويصعبُ كذلك التَّجْنِيسُ والتَّـرْصِيعُ إذا رُويَ معه المعنى قيلَ له : فأنتَ الآنَ إن عقلتَ ما تقولُ قد خرجتَ من مسألتك وتركْتَ أن يستحقَّ اللفظُ المزيَّنةَ من حيثُ هو لفظٌ وجئتَ تطلبُ لصعوبةَ الذَّـظْمِ فيما بينَ المعاني طريقاً وتضعُ له علاقةً غيرَ ما يعرفُها النَّاسُ وتَدَّـعِي أنَّ ترتيبَ المعاني سهلٌ وأن تفاضُلَ النَّاسِ في ذلكَ إلى حَدٍّ وأنَّ الفضيحةَ تزدادُ وتَقوى إذا تُؤخِّـرَ في حُرُوفِ الألفاظِ التَّعَادُلُ والتَّلاؤمُ وهذا مِنكُ وهُمُ وذلكَ أنَّا لا نعلمُ لتعادلِ الحروفِ معنىً سوى أن تسلمَ من نحوِ ما تجدُّه في بيتِ أبي تمامٍ : .
(كريمٌ متى أمدَّحَهُ أمدَّـحَهُ والورى ...) .

وبيتِ ابنِ يَسِيرٍ : .

(وانثنتُ نحوَ عزفِ نفسٍ ذَهولٍ ...) .

وليس اللَّفْظُ السليمُ من ذلكَ بمعوزٍ ولا بعزيرِ الوجودِ ولا بالشَّيءِ لا يستطيعهُ إلاَّ الشَّاعرُ المُفلقُ والخطيبُ البليغُ فيستقيمُ قياسهُ على السَّـجْعِ والتَّـجْنِيسِ ونحوِ ذلكَ مما إذا رامَهُ المتكلِّمُ صعبَ عليه تصحيحُ المعاني وتأديةُ الأغراضِ . فقولُنا : " أطال اللُّهُ بقاءك وأدام عزَّكَ وأتم نعمتَه عليك وزادَ في إحسانه عندك " لفظٌ سليمٌ مما يَكُـدُّ اللُّسانَ وليس في حُرُوفه استكراهٌ . وهكذا حالُ كلامِ النَّاسِ في كُتُبِهِم ومُحاوراتهم لا تكادُ تجدُ فيه هَذَا الاستكراهَ لأنه إنَّما هو شيءٌ يعرضُ للشَّاعرِ إذا تكلَّفَ وتعمَّـلَ فأَمَّا المُرسِلُ نفسهُ على سَجِيَّتِها فلا يعرضُ له ذلكُ .

هذا والمتعلِّـلُ بمثلِ ما ذكرتُ من أنه إنَّما يكونُ تلاؤمُ الحروفِ مُعْجَـزاً بعد أن يكوُنَ اللَّفْظُ دالاً لأنَّ مراعاةَ التَّعَادُلِ إنَّما تصعبُ إذا احتيجَ معَ ذلكَ إلى مُراعاةِ المعاني - إذا تأملتَ - يذهبُ إلى شيءٍ طريفٍ وهو أن يصعُبَ مرامُ اللفظِ بسببِ المعنى وذلكَ مُحالٌ لأنَّ الذي يعرفُهُ العقلاءُ عكسُ ذلكَ وهو أن يصعبُ مَـرامُ المعنى بسببِ اللَّفْظِ فصعوبةُ ما صَعُبَ من السَّـجْعِ هي صعوبةُ عَـرَضَتْ في المعاني من أَجْلِ الألفاظِ وذاكَ أنَّهُ صعبٌ عليك أن توفِّقَ بينَ مَعاني تلكَ الألفاظِ المُسجَّعةِ وبينَ مَعاني الفُـصُولِ التي جُعِلَتْ أُرْدافاً لها فلم تستطعْ ذلكَ إلا بعد أن عدَلتَ عن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ أو دخلتَ في ضَرَبٍ منَ المجازِ أو